المبحث الأول

الطبيعة وجمالها الساكن والمتحرك

شغلت الأندلس الناس بجمالها الطبيعي، وسحرت كل من رأى أو سمع بهذا الجمال، وهو مزيج من الأشكال والألوان والأصوات، في انسجامٍ وتناغمٍ وتآلف. وأكثر الشعراء والكتّاب من وصف رياضها وحدائقها وقصورها ومدنها التي تُظهر جمال الطبيعة فيها بأبهى حُلَلها وأحلى مباهجها.

وكان لتعلق الشاعر الأندلسي بهذا الجمال سببه، وإيثارها على سائر البيئات، كيف لا وهي منبع سرورهم ومرتع لعيونهم، وفيها يقول الشاعر الأندلسي:

حبذا أندلسٌ من بلدٍ ... لم تزل تنتج لي كلّ سرورْ
طائرٌ شادٍ، وظلٌّ وارفٌ ... ومياهٌ سائحاتٌ وقصورْ[1]

والشاعر بينه وبين الطبيعة محبة وأُلفة، وهو ذواقٌ ذو إحساس مرهف، ولذا نجده دون سواه الرسول الذي يتلقى وحي الطبيعة فيستجيب لجمالها، وتسحره ألحانها ومناظرها، فكم من شاعر نراه يطوف في روضة باسمةٍ، أو نهر يختال، أو جدول يترقرق، أو قمر يرقبه السمار، أو نجم يرثي للحائر، أو برق يحكي اللقاء الخاطف... إلخ، فاستجابته للجمال وشعوره بالطبيعة في هذا مصدر إلهام ووحي للشاعر ومنزع إثارة وإمداد له[2].

وفي ذكر فضائل طبيعتها كلام كثير في بطون المظان الأندلسية وغيرها، وسأكتفي بإيراد نصين منها، الأول: لوزيرها لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) ما نصه: «خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرّيع وغدق السّقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآذية، وكثرة السلاح، وصحّة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة

(١) نفح الطيب: ٢٢٧/١. لم ينسب إلى شاعر.
(٢) ينظر: في الأدب الأندلسي، د. محمد كامل الفقي: ٦٨.

الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدّن والاعتمار، بما حُرِمَهُ الكثير من الأقطار ممّا سواها»[١].

والآخر لأبي عبيد البكري يقول: «الأندلس شاميةٌ في طيبها وهوائها، يمانيةٌ في اعتدالها واستوائها، هنديةٌ في عطرها وذكائها، أهوازيةٌ في عظم جبايتها، صينيةٌ في جواهر معادنها، عدنيةٌ في منافع سواحلها، ..»[٢].

هي السعادة إذن، إذ يحق لأصحابها ومن سكن فيها الفخر بها على البلدان، ولذا نرى شخصية الأندلسي، ومهما كانت مرتبته العلمية أو الاجتماعية تذوب وتتلاشى كلما وجد بين أحضان الطبيعة، لكأنه يشعر بضعفه أمام مفاتنها، فهو لا يمتلك غير الاستجابة ملبيًا دعوتها ومغردًا بأنغامها[٣].

والشاعر الأندلسي أدرك أهمية الجمال في الشعر لكونه يسرُّ النفس وحواسها، وهو أيضًا يهيئ الخيال الشعوري الذي يعتمد بالدرجة الأولى على حاسة البصر؛ لأنها من أوائل الحواس قدرة على نقل الأحاسيس وتبادل المشاعر، وشعرهم جاء تعبيرًا عن استجابة الذات الشاعرة لرغبتها في التمتع بجمال الطبيعة، وكذلك لتأثير مظاهر الجمال فيه[٤].

وفي تناولنا لجمال الطبيعة نقسمها على قسمين، الأول: الطبيعة الساكنة (الصامتة)، والآخر: المتحركة (الحية).

جمال الطبيعة الساكنة (الصامتة):

وهي «مظاهرها ووجودها المتجسد في سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحدائقها وحقولها وما إلى ذلك»[٥]. ومنهم من قسم الطبيعة الصامتة إلى طبيعة طبيعية، وهو ما ذكرناه، وطبيعة صناعية، وهي التي عمل الإنسان في إنشائها ووجودها، كالقصور والزخارف والبرك وغيرها، والأول يكون أقرب إلى كلمة (الطبيعة)؛ لأنها تُحدِثُ في النفس الحس الشعوري الذي ينبض بجمالها. أما الطبيعة الصناعية فمنفصلة عن

(١) نفح الطيب: ١٢٦/١.
(٢) نفح الطيب: ١٢٦/١.
(٣) ينظر: في الشعر الأندلسي، د. عدنان صالح مصطفى: ١٨.
(٤) ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري: ١٨٧.
(٥) في الأدب الأندلسي، د. جودة الركابي: ١٢٥.

روح الطبيعة بمعناها الحقيقي[1]. ولكون الشعر الذي يقال في وصف القصور ومظاهر العمران وغيرها، يكون أقرب إلى فن الوصف للمكان الحضري منه إلى شعر الطبيعة. ولأننا نرغب في توافر ما يميز شعر الطبيعة عن سواها بوجود هذا الحس الطبيعي وتجاوب الذات معها، وتكوين الإطار الروحي والعاطفي لجمال الطبيعة، الذي ينصهر داخله الكيان البشري، فتتمازج روحه بجمالها وأنفاسه بعبيرها، فتخرج كلماته نابضة موحية بقيم الإبداع لجمالٍ أبدعه الخالق.

وشعراء الأندلس وجدوا في الطبيعة مرآة لأحاسيسهم ومشاعرهم فتناغموا معها شاكين همومهم، وباثّين آلام حرمانهم وحزنهم ومآسي معاناتهم، آملين أن يستشعروا في ربوعها معاني الأمل والتفاؤل الذي قد فقد من كثرة الحروب والفتن وذهاب المُلك، لذا تمثل الطبيعة هروبًا نفسيًّا للشاعر عند فقده الصدق والتقييد والتذمر، فهم عرفوا الطبيعة بكل مظاهرها فعاشوا فيها، ولجأوا إليها في أصعب الأوقات.

من هنا كانت الطبيعة الأندلسية الرفيق الروحي والمتنفس المهم للشاعر الأندلسي، إذ نراها في شعره وقد جاءت في كل شيء من نظر وخبر وحدث ووصف و... إلى غير ذلك.

فصل الربيع على سبيل المثال كان الفصل المناسب لهذه الرفقة الروحية التي تحدثتُ عنها، والمتنفس الحقيقي بل المثالي - في رأيي - لمشاعر الشاعر الأندلسي وما يقرض. فكانت أوصافه لهذا الفصل وما يحدث فيه أوصافًا حية ومن مشاعر صادقة.

فبقدوم الربيع يبدأ الانتشار للصفات الجمالية للمكان الذي يريده الشاعر الأندلسي ويقصده، فالأرض تُخرج أزهارها وتخضر الأشجار، لذا نرى شعراء الأندلس يستبشرون بقدومها؛ لأنها بداية حياة وعنصر تفاؤل ورحمة، يقول أبو عامر بن مسلمة (ت٥١١هـ)[2]:

أهلاً وسهلاً بوفودِ الرَّبيعِ ... وثغرِهِ البسّامِ عندَ الطّلوعْ
كأنّما أنوارُهُ حُلّةٌ ... مِن وَشْي صنعاء السريِّ الرفيعْ

(١) ينظر: م. ن: ١٢٦.

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة، أبو عامر الوزير. أديب عالم شاعر من بيت أدب ورياسة، هاجر إلى إشبيلية وعاصر المعتضد بن عباد، وله كتاب (الارتياح في وصف حقيقة الراح)، ولد سنة (٤٣٤ه) وتوفي في (٥١١ه). ينظر: جذوة المقتبس: ١١٣/١، ومطمح الأنفس: ٢٠٣-٢٠٤، وبغية الملتمس: ١٢٣/١، والمغرب في حلى المغرب: ٩٦/١.

أحْبِبْ بهِ مِن زائرٍ زاهرٍ دعا إلى اللّهْوِ فكنتُ السميعْ[1]

فهو يرحب به زائرًا يأتي بعد طول غياب، والذي أعاد معه الابتسامة والجمال الذي حلت أنواره في كل مكان، فهو مسرح لهوه ومرتع أنسه.

فالجمال يتكون بقدوم الربيع الذي ترقبه العيون وتبحث عنه الأنفس؛ لأنها تعيد الحياة لكل شيء، فهذا الوزير الكاتب أبو حفص بن برد (ت٤١٨هـ)[2] يرفع صوته بقدوم الربيع الذي نشر الحلل المذهبة، فاخضرت الغصون وازّينت بأزهارها، مشبهًا تغلغل أشعة الشمس بين أغصانها وإكسائها بألوان جميلة كعذراء تخجل حين تهوى، يقول في ذلك:

هذا الربيعُ وكنتَ تَرقبُهُ فانظرْ بعيشِكَ كيفَ تصْحَبُهُ
قد نُشّرَتْ حُلَلُ النباتِ بهِ فبدا مفضَّضُهُ ومذهبُهُ
والوردُ قد سَمَتِ الغصونُ بهِ تجلوهُ والأبصارُ تخطُبُهُ
والشمسُ قد ضربَ الضحاءَ بها في صبغهِ فذكا تلهبُهُ
فكأنَّ مَن يَهواهُ يُخْجِلُهُ وكأنَّ رَيّاهُ تُطَيّبُهُ[3]

فالشاعر استعمل فعل الأمر (انظر) الذي يوحي باستثمار الربيع والاستمتاع بالطبيعة وصحبتها، فهو يعيش في فرح وسرور بين ذلك النبات الذي ينتشر في كل مكان، وهذه الأغصان التي قد سمت بالأوراد، فهي تزهو لجمالها وصفائها وهي سحر للناظر إليها.

ويعد أبو جعفر بن الأبار (ت٤٣٣هـ)[4] فصل الربيع ملك الفصول، كيف لا وهو في قمة الشباب الذي يثري ويعطي الجمال، وملكه يسري في كل مكان، فجمال وروده لباس ملكه، وأعالي أشجاره قبابٌ لقصوره، وماؤه يأتي من سمائه، ونوره في شمسه،

(١) شعر أبي عامر بن مسلمة (بحث): ١٥٩.
(٢) الوزير الكاتب أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد مولى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد مليح الشعر، من أهل بيت أدب ورياسة، وله رسالة في السيف والقلم والمفاخرة. ينظر: جذوة المقتبس: ١٨٨/١، ومطمح الأنفس: ٢٠٧، وبغية الملتمس: ٢١٨/١، والمغرب في حلى المغرب: ٨٦/١، ورايات المبرزين: ٧٠.
(٣) البديع في وصف الربيع: ١٢٦.
(٤) أحمد بن محمد الخولاني الإشبيلي، المعروف بابن الأبار، أبو جعفر، من شعراء إشبيلية في زمن المعتضد بن عباد. ينظر: جذوة المقتبس: ١٨٢/١، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق١٠٧/٣/٢، وبغية الملتمس: ٢٠٧/١، والمغرب في حلى المغرب: ٢٥٨/١.

وهو أيضًا ملك القلوب والعقول، وسَحر العيون بهذا الجمال وهذا الإبداع لنستمع لأوصاف هذا الفصل عنده في قوله:

لَبِسَ الربيعُ الطلْقُ بُردَ شبابِهِ ... وافترَّ عن عُتْباهُ بَعدَ عِتابِهِ
ملكُ الفصولِ حبا الثرى بثرائِهِ ... متبرِّجًا لوهادِهِ وهِضابِهِ
فأراكَ بالأنوارِ وَشْيَ برودِهِ ... وأراكَ بالأشجارِ خضرَ قبابِهِ
أمسى يذَهِّبُها بشمسِ أصيلِهِ ... وغدا يفضِّضُها بدمعِ جنابِهِ
عقَلَ العقولَ فما تكيَّفَ حسنُهُ ... وثنى العيونَ جنائبًا بجنابِهِ(١)

وبقدوم الربيع ينتشر الرياض في كل مكان، وهي غنيّة بألوان من الأزهار والأنوار والأشجار... إلخ. فهذا ابن عبد ربه يقول في هذا:

وَروضةٍ عقدتْ أيدي الرَّبيعِ بها ... نَورًا بنَوْرٍ وتَزْويجًا بتَزْويجِ
بمُلَقَّحٍ مُن سَواريها ومُلقحةٍ ... وناتجٍ منْ غَواديها ومَنتوجِ
تَوشَّحت بمُلاءٍ غيرِ مُلْحمةٍ ... مِن نَورِها ورداءٍ غيرِ مَنْسوجِ
فألبستْ حُللَ المَوشيِّ زَهرتَها ... وجَلّلْتها بأنماطِ الدَّيابيجِ(٢)

يقدم لنا الشاعر مشهدًا يتمثل في روضة من الرياض في فصل الربيع الذي أوجد فيه من جميل صنعه، إذ الرياض في الربيع تُظهر محاسنها وبديعها بما يكسوها من زهر وشجر، وهي تزداد حسنًا وسحرًا، مستعملاً في تكوين هذه الصورة المطر الذي يهطل من السماء المشبعة بالغيوم الكثيفة التي تستمر في سقيها الروض ليلاً ونهارًا، ولهذا تتفتح الأزهار وتثمر الأشجار فتحدث نوعًا من التكامل والجمال، فهذا المطر يُنعش الرياض ويحييها كما هو معروف، وبهذا يكون أهم عنصر من عناصر تكوين الجمال لفصل الربيع هو هطول المطر؛ لأن فيه حياة لكل شيء.

ولقد حظيت الرياض بنصيب وافرٍ من أشعار أهل الأندلس؛ لأنها ملكت الحواس والمشاهد، فتفاعلوا معها شاعرين مفاتنها وجوانب الروعة والجمال فيها، مازجين هذا الشعور بالأغراض الشعرية، كيف لا وهي الجنة التي ينشدها الإنسان، وهي سعادة الأرض وعطاؤها، وفي هذا قيمة جمالية يحسها الشاعر ويصوغها من خلال شعره، وهو ما فعله سليمان بن بطال المتلمس (ت قريبًا٤٠٠هـ) حينما قال:

---

(١) شعر أبي جعفر بن الأبار (دراسة وصنعة وتحقيق)، (بحث): ٧٦.
(٢) ديوان ابن عبد ربه: ٣٧.

تبـــدَّتْ لنـــا الأرضُ مزهُـــوَّةً ... علينـــا ببهجـــةِ أثوابِهـــا
كـــأنَّ أزاهرَهـــا أكـــؤسٌ ... حَوتْهـــا أنامـــلُ شُـــرَّابِها
كـــأنَّ الغصـــونَ لهـــا أذرعٌ ... تناولَهـــا بعـــضُ أصـــحابِها
تُـرى حَمْرُهـا مـن رُضـابِ الهَـوَى ... لآلـــئَ فـــي عـــينِ مرتابِهـــا
كـــأنَّ تعانُقَهـــا فـــي الجنـــوبِ ... تعـــانُقَ خَـــوْدٍ لأترابِهـــا
كـــأنَّ ترقـــرقَ أجفانِهـــا ... بُكاهـــا لِفُرقـــةِ أحبابِهـــا(١)

فهو ينقل زهو الأرض وفرحها وتعانق أزهاره مع نسائم الجنوب، مُظهرًا فيه الروعة والإبداع من خلال سرده هذه التشبيهات الجميلة، ونرى فيه الامتزاج بين الجمال الطبيعي ومشاعر هذا الشاعر الذي نقل لنا صوره بفنية عالية، وهذا يدل على مدى تعلق الأندلسي بالقيم الجمالية للطبيعة التي وهبها الله عز وجل له.

وهذا ابن اللبانة الداني يستمد صوره وتشبيهاته للروض من ذاته وروحه، فيجعله مشاركًا له بروعته وفزعه، يقول:

والـــوردُ تحـــتَ الطـــلِّ فيهـــا مشـــبهٌ ... خـــدًّا يـــذوب مـــن الحيـــاءِ فيَقطَـــرُ
وكـــأنّ نرجسَـــها أُصـــيبَ بروعتـــي ... فعـــلاه لـــون مثـــل لـــوني أصـــفرُ
فكأنّمـــا الرّيحـــانُ روحـــي كلّمـــا ... تتغيّـــرُ الأشـــياءُ لا تتغيّـــرُ(٢)

فالروض وما فيه من ورد يذوب كالخد من الحياء، ونرجس حين روعها كلونه الأصفر في فزعه، وريحانها كروح الشاعر في دوام البهجة المتمثل في اخضرارها وعطرها الزكي. فهما كيان واحد، ونرى فيه مدى التمازج وارتباط الشاعر الأندلسي بجمال الطبيعة، حتى إنه يحسها كنفسه في الأشياء كلها. وهو «الجمال الدائم المستمر المتجدد على مدار السنة وتبدل فصولها، ذلك الجمال المعنوي الذي يتجاوب مع أنفسهم فينطقهم بالشعر، ويتجلى عليهم فنهتز له ونطرب»(٣).

والشاعر الأندلسي أدرك هذا الجمال، فحيثما أدار عينيه يرى في الرياض جمالاً، وفي أشجارها جمالاً... إلخ، ولذا نرى اتساع أفق بصره، وكيف أنّ نفسه تسكن لمثل هذه القيم التي تربط بينه وبين جمالها حتى كوّنا ماهيةً واحدة لهذا الكيان الجمالي.

---

(١) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ٤١-٤٢. الخود: الفتاة الحسنة الخلق أو الجارية الناعمة. ينظر: لسان العرب: مادة (خود).
(٢) ديوان ابن اللبانة الداني: ٦٥.
(٣) ألوان من الجمال والغزل: ١٠٤.

ولم يكتفِ الشاعر بذكر جمال الطبيعة ككل، وإنما أراد ذكر الأجزاء التي تتكون منها، مثلاً نجد من مكونات جمال الرياض والحدائق ما فيه من أزهار وأشجار متنوعة، تناولها الشاعر الأندلسي واحدة واحدة، مفضلاً بعضها على بعض، منتشين معها بشذى عطرها وبسحر جمالها، فخلعوا عليها كل ما عرفوا من صفات الحسن والبهاء، مظهرين خفايا جمالها. وأسماء هذه الأزهار والورود كثيرة في شعرهم، منها (النَّور، الورد، النرجس، الخيري، البهار، السوسن، الأقحوان، النيلوفر... إلخ)، ولا يمكننا ـ من هذه الكثرة ـ أن نذكرها جميعًا، إلا أننا سنورد بعض النماذج التي قد تغني عن سواها، لأن التشابه والتكرار فيها واضح مع أن الإبداع والجمال واضح فيها أيضًا. فهذا أبو بكر بن نصر (ت ق ٥هـ)[1] يذكر أنواعًا مختلفة من الأزهار يقول:

وقد راقني من يانعِ النَّوْرِ فاقعٌ ... وقانٍ وأحوى حالكُ اللونِ أسودُهْ
غلائلُ خيري وأقباءُ سوسنٍ ... وقمصانُ نسرين يروقُ توقُّدُهْ
وكم سبط للنَّوْرِ يسطعُ نُورُهُ ... تمرُّ بهِ ريحُ الصَّبا فتجعّدُهْ
إذا الأقحوانُ الغضُّ أبدى تبسُّمًا ... تبدّى من الوردِ النَّضيرِ تورُّدُهْ
ويُزهى الشقيقُ العصفُريُّ بلونِهِ ... إذا فاقعُ الحوذانِ جادَ توُلُّدُهْ
وما الخُرَّمُ الكُحليُّ إلا كأنّهُ ... من الحسنِ طرفٌ جالَ في الجفنِ إثمدُهْ
ومِن نرجسٍ نضرٍ يروقُكَ دُرُّهُ ... وياقوتُهُ السامي به وزبرجدُهْ
وكم للربيعِ الطلقِ نورًا منوّرًا ... تنتّجُهُ أيدي الحيا وتولّدُهْ[2]

إنّ هذا النص زاخر بأنواع شتى من الأزهار والأنوار والأوصاف، قصدها الشاعر لإظهار جمال الروض وإعلاء قيمته وحسنه، فقد وصف الشاعر فيها كل زهرة منها على حدة، ولكلٍّ منها مكانتها وميزتها بين أقرانها، وهي تبعٌ لإحساس الشاعر ومشاعره وما تترك في ذهنه وخياله من صورة، فالسوسن والنسرين والأقحوان أعجبه تبسمها، وأما النرجس فيروق منظره الذي كأنه درٌّ وياقوت وزمرد، وكيف لا تكون جميلة وهي الأحجار الكريمة جمالاً وروعة وندرة، وفي بيته الأخير يشير إلى التنوع المتوافر في

(١) أبو بكر بن نصر، من أهل الأدب والشعر بإشبيلية، ذكره أبو الوليد بن عامر، وحكى أنه كتب إليه في زمن الربيع أبياتًا. ينظر: جذوة المقتبس: ٦٢٤/٢، والبديع في وصف الربيع: ٥١، وبغية الملتمس: ٦٩٧/٢.

(٢) البديع في وصف الربيع: ٥٢. الحوذان: نبات يرتفع قدر الذراع له زهرة حمراء في أصلها صفرة وأوراقه مدورة. ينظر: لسان العرب: مادة (حوذ). الخرم: هو التشقق أو ما قطعتَ منه شيئًا. ينظر: لسان العرب: مادة (خرم).

أنوار الربيع وأزهاره التي تنتجها الأمطار. هي لوحة تنقل هذا الجمال وتخلّده، مكوّنة بعناصرها الإطار الذي تتخذه في إعطاء القيمة الجمالية للطبيعة الأندلسية.

ومن الشعراء من افتُتن بجمال زهرة بعينها، كالياسمين مثلاً، فهذا المعتضد بن عباد يقول:

كأنّما ياسمينُنا الغضُّ ... كواكبٌ في السماءِ تبيضُّ
والطرفُ الحمرُ في جوانبِهِ ... كخدٍّ عذراءٍ نالَهُ العَضُّ[1]

فجمال الياسمين كالكواكب اللامعة في السماء - وهنا يظهر حب الأندلسي وميله نحو اللون الأبيض كما أسلفنا - ويشبه الشعيرات الحمر التي تنسرح في صفحتها بخدّ فتاة حسناء فيه آثار عض، فهي متوردة مكسوة بحمرة من أثرها، والشاعر أراد أن يجمع بين صفة الياسمين وصفة مماثلة لموصوف مقابل، وهي هنا البياض يضاف إليه التقابل الضمني بين ما هو على الأرض وما هو في السماء[2].

وهذا أبو عامر بن مسلمة يعجَب بجمال البهار وبنورها فيبعث بها إلى صديق له ومعه قوله:

بعثتُ إليكَ بنَورِ البَهارِ ... حكى فِضَّةً حولَ مَحْضِ النَّضارِ
هوَ الدرُّ نُظِّمَ من بينِهِ ... يواقيتُ فاقعةُ الاصفِرارِ
أو الماءُ صُيِّرَ من فوقِهِ ... إذا ما تأملتَه ضوءُ نارِ
نهارٌ ولكنَّهُ باهرٌ ... فعُوِّضَ من ذاك باسمِ البَهارِ[3]

إنّ جمال البهار الذي يشبه الفضة التي وسطها ذهب أو الدر الذي يتوسطه ياقوت أصفر، يكون فيه قريبًا للهدايا التي تُعطى للملوك والأمراء من الجواهر والذهب والفضة، فهي عند الشاعر لا تقل عنها بل تزيد عليها لكونها تنبض بالحياة وتشذ عبيرًا وعطرًا.

والبهار يتكون من لونين أبيض وأصفر، فالأبيض شبهه بالفضة والدر، والأصفر بالذهب والياقوت الأصفر، وفي استعمال الشاعر لهذا التشبيه أراد زهرة البهار وإعلاء مكانتها، وتُعرف قيمتها الجمالية بين أقرانها من الأزهار والورود.

---

(١) ديوان المعتضد بن عباد (بحث): ١١٢.
(٢) ينظر: ملامح الشعر الأندلسي: ٢٢٨.
(٣) شعر أبي عامر بن مسلمة (بحث): ١٥٦.

ولم يكتفِ الشاعر الأندلسي بذكر جمال هذه الأزهار بل نراه يعقد موازنة بينها وتفضيل إحداها على الأخرى، فهذا الرمادي يقول:

لـــلآسِ والسّوســـنِ والياســـمين ... الغـــضِّ والخيـــريِّ فضـــلٌ شـــديدْ
ســادتْ بـــه الـــرَّوضُ ومـــن بينهـــا ... وبـــين فضـــلِ الـــورد بـــون بعيـــدْ
هـــل لـــك فـــي الآسِ ســـوى شـــمَّةٍ ... تطرحـــهُ مـــن بعـــدها فـــي الوقـــودْ
والـــوردُ إن يـــذبلْ ففـــي مائِـــهِ ... نســـيمُ ضـــمّ الإلـــف بعـــدَ الصـــدودْ
والسَّـــوءُ فـــي السَّوســـن عـــام وفـــي ... ســـاعةِ ســـوء قـــد تُـــزارُ اللّحـــودْ
والياســـمينُ الياســـُ فـــي بدئـــه ... فهـــو لمـــن يطمَـــعُ هـــمٌّ عتيـــدْ
أخـــلَّ بـــالخيريِّ خلْـــقٌ كخُلـــ ... ـــقِ اللـــصِّ يســـتيقظُ بعـــدَ الهجـــودْ
فـــالوردُ مـــولى الـــرَّوضِ لكنَّـــه ... فـــي قـــدره عبـــدٌ لـــوردِ الخـــدودْ[1]

يحتفي الرمادي بالورد ويعلي من شأنه ويفضله على بقية الأزهار من الآس والسوسن والياسمين والخيري، وهو يذكر أنّ هذه الأزهار لها جمالٌ وفضل شديد، لكنها دون فضل الورد ومكانته عند الشاعر، وقد استعمل أسلوب الاستفهام وهو ينظر إلى الآس الذي يعبق بروائحه الزكية، مخاطبًا المتلقي بأن ليس له منها سوى شَمّة واحدة وبعدها يجعل منها حطامًا يوقد به، لكن الورد في ذبوله يستخرج منه عطر يقرب كل بعيد، فالورد بنعومته وشدة كرمه وهو يجود برائحته الزكية هو المولى لما في الروض، لكنه (الورد) عبد لتورد الخدود. الرمادي بث في قصيدته قيمًا جمالية في مقارنته هذه وهو ينبئ عن مقدرته وتمكنه من أدواته الفنية التي تضع الأمور في نصابها.

وأما الثمار والفاكهة فلها ذكرٌ في الشعر الأندلسي، لكن بشكل أقل من الأزهار، ولعل مرد ذلك إلى «أنّ الزهر شيء جمالي، بألوانه ورائحته، يثير في الشاعر انفعالات وأحاسيس لا تحركها الثمار التي هي غالبًا ما تكون مادة طعام وتفكه، وليست وسيلة زينة وتجميل»[2].

ولم يكن من الطبيعي أن يفتتن الأندلسي بالروض والزهر من دون الثمار والفاكهة، فهذه تملأ العين سحرًا والنفس بهجة أيضًا، وكانت مصدرًا للإلهام وعنصرًا للجمال لشعراء الأندلس[3].

(١) شعر الرمادي: ٦٢-٦٣.
(٢) الشعر في ظل بني عباد: ١١٣.
(٣) ينظر: الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه): ٢٩٧.

فهذا أحمد بن فرج الجياني يقول في الرمان:

ولابسةٍ صَدَفًا أصفَرَا ... أتَتْكَ وقد مُلئتْ جوهَرَا
كأنَّكَ فاتحُ حُقٍّ لطيفٍ ... تضمَّنَ مرجانَهَا الأحمرا
حُبوبًا كمثلِ لَثاتِ الحبيبِ ... رُضابًا إذا شئتَ أوْ منظَرَا[1]

فحبات الرمان هي جواهر قد ضمها صدف أحمر تبهر من رآها وهي كحُقق ملآى بالمرجان. هذا في جمال مظهرها الخارجي، أما من ذاق طعمها ومذاقها فهي كلثة الحبيب في حمرتها وفي طعم ريقها الذي ينعش العاشق المترقب لها.

وهذا الحاجب المصحفي يقول في سفرجلة:

ومصفرّةٍ تختالُ في ثوبِ نرجسِ ... وتعبقُ عن مسكٍ ذكيِّ التّنفّسِ
لها ريحُ محبوبٍ وقسوةُ قلبِهِ ... ولونُ محبّ حلّة السّقمِ مُكتسي
فصُفرتُها من صُفرَتي مستعارةٌ ... وأنفاسُها في الطّيبِ أنفاسُ مُؤنسي
وكانَ لها ثوبٌ من الزغبِ أغبرٌ ... على جسمِ مصفرة من التّبرِ أملسِ
فلمّا استتمّت في القضيبِ شبابَها ... وحاكتْ لها الأوراق أثوابَ سندسِ
مددتُ يدي باللطفِ أبغي اجْتِناءَها ... لأجعلَها رَيحانتي وسطَ مَجلسي
فبزّتْ يدي غضبًا لها ثوب جسمِها ... وأعريتُها باللطفِ من كلِّ مَلبسِ
ولمّا تعرّتْ في يدي من برودِها ... ولم تبقَ إلاّ في غلالةِ نرجسِ
ذكرتُ لها مَن لا أبوحُ بذكرِهِ ... فأذبَلَها في الكفِّ حرُّ التنفُّسِ[2]

فالشاعر حين رأى ثمرة السفرجل وأحس جمالها ومكنونه، لم يلبث أن أظهر موهبته مسفرًا عن أريج السفرجل الزكي وحسن منظره، مازجًا ذلك بوصف المرأة أحيانًا، أو بثها مشاعره في ألفاظٍ رقيقة وصور موحية، لكننا نجد في أبياته لمسة حسية (الجنس)، وهي تترجم سلوك المجتمع الأندلسي، مجتمع التمرد، فالشاعر يشبه تقشير السفرجلة بتعريها من ثيابها ولم تبقَ إلا في غلالة نرجس رقيقة تكشف عن مفاتنها، فيتذكر بها فتاته التي أدى معها الدور نفسه.

إنّ جمال الطبيعة يومئ للفنان بمشاعر جديدة، وما ينتجه هو الشكل الروحي التعبيري لفرح ولّد تلك المشاعر، وبمقدار قوة الإيحاء التي تملكها عناصر الطبيعة وما تملك من قيمة جمالية متصلة بمشاعر الفنان ونفسه، ينفسح المجال أمامه لقوة التعبير

(١) أحمد بن فرج الجياني (بحث): ٢٢٢.
(٢) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي (بحث): ١٨٦.

ومهارة التصوير وسعة الخيال وبراعة الأداء وجماله[1]. وهذا ما نجده عند الشاعر الأندلسي، فحين وقوفه أمام جمال طبيعة الأندلس نراه يستمد منها طاقته فتوحي له وتوسع من خياله، وهذا ما لاحظناه في الأمثلة السابقة، فجمال الربيع بقدومه، وعطاء الزهور بألوانها وعطرها وتلون رياضها، وجمال ثمارها بتذوقها وأشكالها المختلفة، فكانت قيمتها الجماليّة في معنى الأخذ والعطاء، الأخذ من الطبيعة والعطاء منها، فهي منبع الجمال في هذا الفردوس.

ولم يكتفِ الشاعر الأندلسي بما هو موجود على الأرض، بل اتجه نحو السماء بما فيها من نجوم وشمس وقمر... إلخ، أو ظواهرها من ليل ونهار، فهو قد تجاوب معها حد الاندماج والتداخل، مجتازًا لحظات من التعمق والامتزاج العاطفي بالطبيعة.

ولهذه الألفاظ معانٍ ودلالات عدة منها جمالها في السماء الدنيا، والاهتداء بها في ظلمات الليالي، وتشبيه جمال الحبيبة بها، وهذا المسلك سلكه القدماء في أشعارهم، وسار عليه الأندلسيون أيضًا، فهذا ابن عمار يذكر (النجوم) في مدحه للمعتضد حين انتصاره على البربر، يقول:

بكلِّ فتًى عاري الأشاجع لابسٍ ... إلى غمراتِ الموتِ محكمةِ السردِ
يكرُّ فكمْ طعنٍ كسامعةِ الفرا ... يُضاف إلى ضربٍ كحاشيةِ البُردِ
نجوم سماءِ الحربِ إنْ يدْجُ ليلُها ... يدورُ بهم أفواجها فلك السعدِ
خميسٌ تردّى من بنيكَ بمُرهفٍ ... حكاكٍ كما قدّ الشراكُ من الجلدِ[2]

وعلى الرغم من شدة ظلام الحرب وخفوت النجوم في معركةٍ حامية الوطيس، يبرز الشاعر القيمة الجمالية في دوران أفلاك النجوم بالخير والبركة، فشدة المعركة وهولها قد ذهب بعقول أشجع الفرسان وقلوبهم وهم النجوم الذين ذهب الروع بضيائهم، لكن حكمة وشجاعة ممدوحه (المعتضد) حوّلت هذه المعركة لصالحه وانتصر فيها، لأنه كان فلك سعدها، جالبًا الخير والأمان لها.

ويقول ابن شهيد في ليلة ظلماء:

وبتنا نُراعي الليل لم يطوِ بُردَهُ ... ولم يَجْرِ شَيبُ الصُّبح في فرعهِ وخْطا

(١) ينظر: دراسات فنية في الأدب العربي: ٢٧١.
(٢) محمد بن عمار الأندلسي: ١٩٦. الأشاجع: مفاصل الأصابع. ينظر: لسان العرب: مادة (شجع). الفرا: فرى الشيء يفريه فريًا، أي شقّه وأفسده. ينظر: لسان العرب: مادة (فرا).

تـراهُ كمَلْـكِ الـزَّنجِ فـي فَـرْطِ كِبْـرِهِ إذا رامَ مشْـيًا فـي تَبَخْتُـرِهِ أبْطـا
مُطِـلًّا علـى الآفـاقِ والبـدرُ تاجُـهُ وقـد عَلَّـقَ الجـوزاءَ مـن أُذنـهِ قُرْطـا[1]

و هذا مشهدٌ للاسماء حين هبوط الليل، و هو مما ألهم الشعراء في كل حين، لأن الشاعر حين يرى الظلام يلفه من كل جانب ولا يجد ضياءً سوى النجوم أو البدر، يثير عنده المشاعر والأحاسيس، فضلاً عن ذلك فإن الليل يأتي دائمًا شريكًا في ذكريات الشاعر الغرامية، فالشاعر يشعر بالو حدة والضعف أمام هذا الغموض الذي يلفه، وابن شُهيد يشبهه بملك زنجي متكبر يجرّ ذيوله نحو الذهاب فهو يتبختر في مشيه دلالة لبطء الليل وثقله على نفسية الشاعر، ويكمن جماله في قيمة صورته ومزجه وخياله الذي أبدع فيه الشاعر.

وهذا الليل يكابده الشاعر يحيى بن هذيل أيضًا، فهو طويل جاثم على صدره، يقول:

أكابـــدُ لـــيلاً لا يـــزالُ كأنَّـــهُ لإكبابـــهِ فـــوقي شـــجيٌّ مفكِّـــرُ
وأســـــألُهُ أن ينجلـــــي فكأنَّـــــهُ رثـــى لـــي ففيمـــا نـــابني يَتَفكَّـــرُ[2]

فالشاعر يشخص هذا الليل يشكو همومه إليه، وهذا مما أضاف جوًّا شعريًّا فيه قدر من الحيوية والعاطفة، على الرغم من جوه المليء بالغموض والتفكر في الحياة والمصير الذي فرضه الشاعر على حواره مع الليل، وهو امتزاج جميل معه. هذا الليل هو كصديق أو حكيم يحاول إيجاد مخرج لهذا الشاعر الهائم الحيران، فهو يتفكر في حلٍّ له لأنه رثى له بعد أن علم بمصابه، فهنا تبرز القيمة الجمالية من خلال هذا التشخيص الرائع لليل بجعله مفكرًا ومخرجًا للشاعر مما ألمّ به، فهو الصاحب الذي يجده حينما يكون في غربة أو بُعدٍ عن الأهل والأحباب.

ومن الصور الأخرى للهلال قول سعيد بن عمرون (ت أواخر ق٤هـ)[3]:

والبـدرُ فـي جـوِّ السَّـماءِ قـد انطـوى طرفـاهُ حتَّـى عـاد مثـلَ الـزّورقِ
فتـــراهُ مـــن تحـــتِ المُحـــاقِ كأنمـــا غـرقَ الجميـعُ وبعضُـهُ لـم يغـرقِ[1]

(١) ديوان ابن شهيد: ١٢٢.
(٢) شعر يحيى بن هذيل: ٨٨. إكبابه: أي نكس أو قلب. ينظر: لسان العرب: مادة (كبب).
(٣) سعيد بن عمرون، كنيته أبو عثمان بن مروان القرشي المعروف بالبلينة، وهو شاعر من شعراء الدولة العامرية. ينظر: جذوة المقتبس: ٣٦٠/١، والتشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ٣٠٥، وبغية الملتمس: ٣٩٧/٢.

فالهلال كزورق سابح في نهر، وإذا دخل في المحاق ولاح نصفه فهو كالزورق الذي يجري على صفحة نهر وقد اختفى أسفله - وهو الأكثر - وظهر أعلاه روعة ودقة، والشاعر اكتفى بالمظهر الخارجي من دون أن يمزجه بمشاعره كما اعتدنا أن نجده عند الشاعر الأندلسي.

إنّ التجانس الذي نراه في السماء المتمثل بمواقع النجوم وتعاقب الليل والنهار المتمثل بـ (الشمس والقمر)، أمدّ الشاعر بعنصر الجمال وأبرزه في شعره، فالتناسق والانسجام المتوافر في السماء وما تحتويه أعطى للشاعر الخيال والإلهام اللازمين لتكوين صوره الجمالية المؤطرة بعناصر الطبيعة، فهو توحد وتمازج بين الكيان الإنساني وما يحمله من مشاعر وأحاسيس، وطبيعة خرساء جامدة، ولكن هذه الطبيعة مع جمودها وخرسها كانت الهادية له، والمفكرة عنه، كيف لا وهو يهتدي بها حين ضياعه في البر والبحر، ويعد أيامه وشهوره بحسب ظهورها وتعاقبها. فعنصر الجمال موجود، وما فعله الشاعر هو صوغه بلغته وخياله الواسع، فأبرزَ قيمتها الجمالية وخلّدها في شعره، وهي تستحق هذا الخلود وهذه القيمة.

وأما الناحية العمرانية المتمثلة بالقصور والمباني والبرك... إلخ، الذي سميناه (الطبيعة الصناعية)، وهو مما شيده الإنسان وتدخّل في تكوينه، والتي قلنا إنها قد تأتي لاحقة عن الطبيعتين الصامتة أو المتحركة، فهي لا تنفك من سحر يؤثره الشاعر على غيره، ولا تبعد عن الجمال الذي نسعى إليه وقيمه في دراستنا هذه، ومن هنا كان الشاعر الأندلسي حريصًا على التقاط مواطن الإبداع فيها، مهتمًّا بجمالها وبما يبرز قيمتها من خلال هذا الالتقاط.

كما أنّ الشاعر الأندلسي يجعل المكان الذي يقيم فيه أفضل حالاً وأكثر متعة للناظرين، وجعلها متماشية ومجارية لما حوله من طبيعة جميلة، «فالمكان يلعب دورًا مركزيًّا لدى الإنسان»[٢].

وهذا المكان المتمثل بـ (القصور وغيرها) جعل منه الشاعر موضوعًا جماليًّا متخيلاً، أكسبه خاصية الإبداع الذي تؤول ملكيته إلى القارئ، أي إن الشاعر في تقديمه لهذا الجمال لا يقدم سوى الإشارة إليه في شعره، ويعمل الاقتصاد الشعري على اختزالها وحذف أجزائها، ولكن خيال المتلقي يعيد إليها المحذوف، بل يضيف للمكان ما لم يكن

(١) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ١٩.
(٢) التفضيل الجمالي: ٤٠٦.

فيه[1]. فما يقدمه الشاعر تعاد صياغته في الذات، وهذا لا يشمل المكان فقط وإنما جميع ما يتناوله الشاعر في إبداعه، والمتلقي يكون شريكًا له في إعادة الصياغة والفهم، وبهذا يكون مبدعًا آخر في سلسلة عملية إبداع النص.

والشاعر الأندلسي أحسّ قيم الجمال لما شيد، فهي تثير الإعجاب بروعة تكوينها وجمالها، فاعتز بها الشعراء لأنها حققت لهم مبتغاهم وتفردهم الذي ينشدونه، وهذا النشاط العمراني لم يبلغ ذروته عن طريق الصدفة، وإنما كان بسبب عوامل كثيرة، منها الرقي والازدهار الذي شهدته الأندلس في بعض حقبه، كذلك حبُّ أمرائها وخلفائها لتخليد ذكرهم وتفردهم في كل شيء، فعبد الرحمن الناصر (ت٣٥٠هـ) يبني (الزهراء)، وهذا المنصور بن أبي عامر (ت٣٩٢هـ) يبني (الزاهرة). وقد أسلفنا في مبحث (الشعور بالتفرد) كيف كان الأندلسي يبحث عن كل ما يجعله متفردًا في عصره، متقدمًا على المشرق الذي كان منافسًا له في كل شيء.

والأندلسي بهذا البناء يقدم جمالاً لأنّ «العمارة تحاول تجميل الفراغين الداخلي والخارجي ليصلح للحياة الحضارية»[2]، فهو فن وإبداع وجمال، إذ بنى حضارته بعقله الإبداعي المتأثر بقيم الطبيعة الأندلسية الجمالية.

ويلتفت الشاعر حوله باحثًا عن الجمال متلمسًا إياه في الأشياء كلها التي تحيط به، فأينما وجد لمحة من لمحاته صاغها في قالب شعري، مخلدًا إياه ومفتخرًا به، فهذا الخليفة عبد الرحمن الناصر يأتي مدينة الزهراء، يقول في أبيات يخلد فيها شأن مباني مدينته:

همَمُ الملوكِ إذا أرادوا ذِكرَها ... مِن بعدهم فبألسُنِ البنيانِ
أوَ ما ترى الهرمينِ قد بقِيا وكم ... ملكٍ محاهُ حوادثُ الأزمانِ
إنّ البناءَ إذا تعاظَمَ شأنُهُ ... أضحى يدلُّ على عظيمِ الشانِ[3]

فبجمال وعظمة ما يبني الإنسان يُعرف ويخلّد على مر الأزمان، فهذه الأهرام شاهدة على عظمة ملوك مصر وفراعنتها، فكلما سما في البناء، كلما دل على عظيم الشأن والمكانة، وحُقَّ للخليفة أو الأمير أن يفتخر بما بنى وعمر.

(١) ينظر: فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتية جمالية): ١٢٩.
(٢) المدخل إلى فلسفة الجمال: ١٢٣.
(٣) نفح الطيب: ٥٧٥/١.

فهذا ابن شخيص الأندلسي يقدم لوحة تبرز فيها الروعة الجمالية وقيمها من خلال وصفه للزهراء في قوله:

هـذي مبـاني أميـرِ المـؤمنين غـدتْ ... يُـزري بهـا آخـرُ الـدُّنيا علَـى الأولِ
كـذا الـدَّراري وجـدْنا الشَّـمسَ أعظمَهـا ... قدرًا وإنْ قصُرتْ في العلْو عن زُحلِ
لقـد جـلا مصـنعُ الزَّهـراءِ عـن أثـرٍ ... موَّحـدِ القـدرِ عـن مثـلٍ وعـنْ مَثَـلِ
فاتـتْ محاسـنُها مجهـودَ واصـفِها ... فـالقولُ كالسَّـكتِ والإيجـازُ كالخَطَـلِ
بـل فَضْـلُها فـي مبـاني الأرض أجمعِهـا ... كفضـلِ دولـةِ بانيهـا علَـى الـدُّولِ
كـادتْ قِسِـيُّ الحنايـا أنْ تضـارِعها ... أهلَّـةُ السَّـعدِ لـولا وصـمةُ الأفـلِ
تألفـتْ فغـدا نقصـانُها كَمَـلاً ... وربَّمـا تـنقُصُ الأشـياءُ بالكمَـلِ
أوْفـى سـناها علَـى أعلـى مفارِقِهـا ... مـن لؤلـؤٍ حاليـاتِ الخَلْـق بالعَطـلِ[1]

فالزهراء مدينة يحلم بها كل إنسان، فهي جنة أرادها بانيها، فكانت كما أراد، فهذا الخليفة هو فريد بين البشر، وما جاء به فريد أيضًا. استطاع الشاعر أن يرسم بخياله الواسع صورة لما يشاهده، فهو يصف جمال الحركة الهاربة (كادت قسي الحنايا أن تضارعها...) بلغ تصوير روعة الفن الماثل أمامه درجة جعلته يضيع بين الواقع والمثال، فهو حين نظر للمدينة تذكر الكواكب وفضل الشمس عليها، فكذلك (الزهراء) بالنسبة لبقية المدن، حتى وإن وجد النقص فهو كمال وجمال لها كما الشمس حين الأفول لا ينقص ذلك من شأنها شيء.

وهذا ابن هذيل ينقل لنا جمال قصور (الزاهرة) التي بناها المنصور بن أبي عامر، فهي لا تقل روعة وجمالاً عن (الزهراء) فهي منافسة لها فخامةً ومثالاً، يقول:

قصـورٌ إذا قامـت تـرى كـلَّ قـائمٍ ... علَـى الأرضِ يسـتخذي لهـا ثـمَّ يخشـعُ
كـأنَّ خطيبًـا مُشـرفًا مـن سـموكِها ... وشـمُّ الرُّبـى مـن تحتهـا تتسـمَّعُ
تـرى نُورَهـا مـن كـلِّ بـابٍ كأنَّمـا ... سـنا الشَّـمسِ مـن أبوابِهـا يتقطَّـعُ
ومـن واقفـاتٍ فـوقهنَّ أهلَّـةٌ ... حنايـا هـي الَتّيجـانُ أوْ هـيَ أبـدعُ
علَـى عمـدٍ يـدعوكَ مـاءُ صـفائِها ... إليـه فلـولا جَمْـدُها كنـتَ تكـرعُ
تبـوحُ بأسـرارِ الحـديثِ كأنَّهـا ... وشـاةٌ بتنقيـلِ الأحاديـثِ تولـعُ
كـأنَّ الـدَّكاكين الَّتـي اتصـلتْ بهـا ... صـفائحُ كـافورِ تضـيءُ وتسـطعُ

(١) شعر ابن شخيص: ٧٩-٨٠. حاليات: من الحُلّة، أي ألبسك حُلّته. ينظر: لسان العرب: مادة (حلّ). العطل: المرأة إذا لم يكن عليها حلي ولم تلبس الزينة. ينظر: لسان العرب: مادة (عطل).

كـــأنَّ الصَّـــهاريجَ الّتـــي مِـــن أمامِهـــا بحـــارٌ ولكـــن جـــودُ كفَّيـــك أوســـعُ[1]

إنّ هذا النص منذ مطلعه يوحي بأبهة القصور ونقوشها وعظم عمدها وتيجانها وصهاريجها الواسعة، فهذه المدينة بجمالها تمثل مجموعة معمارية خلابة أُبدع فيه، والشاعر عمد إلى التشخيص فجعل من القصور تقوم، وصفاء الماء يدعوك، وبوح العمد بالأسرار... إلخ، وقيمة هذه القصيدة الجمالية تكمن في جعله العمارة بناءً حيًّا مثاليًّا، فجاءت الأبيات حية مثالية، وتكمن هذه القيمة في فعاليته الغنية، فهو يجعل بين مفرداته الشعرية وعناصره صلة وثيقة من العلاقات، فإيقاعه يولد النشوة ويثير الحيوية، وصوره تنقلنا إلى عالم خيالي، وهنا تكمن القيمة الجمالية له، أي في طاقته الإيحائية وإيغالها في التخييل الذي ينقلنا من عالم الواقع إلى عالم المثال.

فالشاعر ينظر إلى الجمال فيتأثر به ويصوره في شعره، وتخلده وتبقيه على مر العصور، فقول الشاعر يبقى حتى وإن زال هذا الجمال واندثر، فهذا الوزير محمد بن عمار يتنزه مع أصحابه بقصر الدمشق بقرطبة فيخلد لنا هذا المشهد الرائع بقوله:

كـــل قصـــرٍ بعـــد الدمشـــقِ يُـــذَمّ فيـــه طـــابَ الجنـــى وفـــاحَ المشَـــمّ
منظـــرٌ رائـــقٌ ومـــاءٌ نميـــرٌ وثـــرًى عـــاطرٌ وقصـــرٌ أشَـــمّ
بـــت فيـــه والليـــل والفجـــر عنـــدي عنبـــر أشـــهب ومســـك أحـــم[2]

هذا المكان المثالي الذي فيه يسكن القلب ويرتاح النظر ويلذ السمع، فجماله في عطره، وجوهره في رونقه، وهو دليل على مدى الترف الذي وصل إليه المجتمع الأندلسي ولا سيما الطبقة الحاكمة، فهم كانوا يتعشقون الزينة وجمال المنظر والمسمع.

الطبيعة المتحركة (الحية):

لم يكن الشاعر الأندلسي بعيدًا عن القيم الجمالية الخاصة بالطبيعة الحية المتحركة والمتمثلة بـ (الحيوان والطير والحشرات)، بأنواعها المختلفة، كما اهتم بالطبيعة الساكنة، فهما وجهان لعملة واحدة، وهما يمثلان الحياة الطبيعية ويكملان بعضهما بعضًا في خلق الكيان الجمالي الذي تميزت به الطبيعة الأندلسية.

(١) شعر يحيى بن هذيل: ٩٥-٩٦.
(٢) محمد بن عمار: ٢٥٥. والأحم: هو الأبيض. ينظر: لسان العرب: مادة (أحم).

وقد سار الشعراء الأندلسيون على نهج من سبقهم في مزجهم لهاتين العمليتين عن طريق وصفهم لأشهر الحيوانات والطيور التي عرفوها وشاهدوها في زمانهم، واصفين كل ما يتعلق بجمال خلقها أو صفاتها.

وإذنا «نلمس فيه روح التجديد مرة ونشتمّ فيه عبق التراث مرات»[١]، وخيال الشاعر الخلاق الذي اهتم بجمال الطبيعة الساكنة يعود ويستلهم من جمالها المتحرك، إذ نلتقي في أشعارهم بمعظم الحيوانات التي تناولها الشاعر المشرقي، أليفةً كانت أم متوحشة، بل نراهم «يذكرون حيوانات لا ترد في الشعر المشرقي إلا نادرًا مثل القرد، والنعام، والخنزير البري، والزرافة»[٢]، وهي مما وجد في بيئات مجاورة للأندلس[٣].

وأشعارهم هذه تأتي غالبًا على شكل مقطوعات منفردة مستقلة، أو ممزوجة مع غيرها من الأغراض الشعرية، ولكن الأول هو الغالب عليها، مع أن شعر الطبيعة المتحركة يكون متكأً وسُلّمًا للأغراض الشعرية كالمديح والغزل... إلخ، منذ أقدم عصور الشعر العربي[٤].

ولنبدأ حديثنا بحيوانٍ شارك الإنسان حياته، جاعلاً منه مركبه في سلمه وحربه، ومطعمه حين تضيق به السبل، واتخذ من جماله ورشاقته وسرعة جريه منبعًا لخياله في كل عصر، وذلك الحيوان هو الخيل الذي أقسم به الله سبحانه وتعالى[٥] ومدحه الشعراء، ولم يغفل الأندلسي عنها، بل شغل القسم الأكبر من نصوصه التي تناول فيها القيم الجمالية للحيوان.

و«نالت الخيول اهتمام الشاعر الأندلسي، وحظيت بحرصه عليها وتفاخره بها وبقوتها وسرعتها ونجابتها، لما يفجر لديه من رموز ومعانٍ كثيرة يتشبث بها ويعتز بتحقيقها كالبطولة والشجاعة والرجولة والمجد، لذلك كانوا يتعرضون لها ويقفون عندها بإطالةٍ ملحوظة في قصائد المدح»[٦]... وغيرها.

---

(١) شعر الطبيعة في الأدبين الفاطمي والأيوبي: ١٨١.
(٢) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ٢١٥.
(٣) ينظر: وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: ٢٤.
(٤) ينظر: الشعر في ظل بني عباد: ١٢٣.
(٥) سورة العاديات: الآيات: ١-٥.
(٦) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ١٤٥.

وأول ما يلفت النظر إلى الخيل رشاقتها، المتمثلة بـ (جمال الشكل والقوة)، ويجمع هذا الأمر ابن دراج القسطلي في قوله في وصف جواد:

سامي التليلِ كأنَّ عقدَ عذارهِ ... في رأس غصنِ البانةِ الميَّادِ
يُهدى بمثل الفرقدين ونابَ عن ... رعيِ السِّماكِ بقلبهِ الوقّادِ
فكأنَّما أطأُ الأباطحَ والرُّبى ... بعُقابِ شاهقةٍ وحيّةِ وادِ
وكأنَّهُ من تحتِ سوطي خارجًا ... في الرَّوعِ شعلةُ قادحٍ بزنادِ[1]

ولقد أورد الصورتين معًا، فجواده جميل الشكل قوي البنية، ذو عنق مرفوع دائم الاهتزاز، وهذه دلالة على نشاطه وأصالته، كما أنه يعرف طريقه من دون حاجة صاحبه لدليل، وهذا الجواد إنْ حُثَّ بضرب السياط انطلق كالبرق الخاطف نحو هدفه.

وهذا النشاط وهذه الحيوية مع جمال الرشاقة في مطاردة وحوش البراري، نجدها في جواد ابن شُهيد أيضًا الذي يقول في وصفه:

وكأنّني لما انحططتُ بهِ ... أرمي الفلاةَ بكوكبٍ طَلّقِ
وكأنّني لمّا طلبتُ به ... وحشَ الفلاةِ على مطا بَرْقِ[2]

وأما الرمادي فيذكر جمال جواده وحسنه الذي زينه بألوانٍ مختلفة في قوله:

وَمَعارضٌ لِلريحِ في حَرَكاتِهِ ... لَولا اللِّجامُ لجالَ كُلَّ مَجالِ
ذو مَنظرٍ حَسَنٍ تَضَمَّنَ مَخبرًا ... حَسَنًا فَكانَ لِزينَةٍ وَقِتالِ
حَسُنَت بِهِ الحَرَكاتُ وَالمَعشوقُ لا ... يصبي لِغَيرِ بَراعَةٍ وَدَلالِ
أَلقَوا عَلَيهِ حَليَهُ فَبَدا لَنا ... فيهِ كَما تَبدو العَروسُ لجالِ
وَكَأَنَّما يُزهَى بِما يَعلوهُ مِن ... حَلي فَيَمشي مِشيَةَ المُختالِ
حَطَمَت حَوافِرُهُ السَّلامَ صَلابَةً ... فَكأَنَّها مِن أوجُهِ البُخَّالِ[3]

اتخذ الشاعر من الزينة وما للجواد من صفة قيمة جمالية في تكوين صورته التي تمازج فيه الشاعر مع جواده، كالعروس التي تتباهى يوم عرسها بجمالها وزينتها، وهذا الجواد يفتخر ويمشي بخُيلاء بين الناس، لكنه مع هذا لولا لجامُهُ الذي يقيد حركته لعدا وجال في كل مكان.

(١) ديوان ابن دراج القسطلي: ٥٤٣-٥٤٤.
(٢) ديوان ابن شهيد: ١٣٥.
(٣) شعر الرمادي: ١٠٦.

ولألوان الخيل أهمية في إكسابها القيمة الجمالية عند الشعراء والعامة أيضًا، فكان للجواد الأدهم القسط الأوفر من هذا التفضيل، فهذا الأديب أبو محمد عبد الله الحجاري (ت ق٥هـ)[١] يصف فرسًا أسود اللون محجل الأرجل في قوله:

ومستبقٍ يَحار الطَّرفُ فيه ... ويسلم في الكفاحِ من الجماحِ
كأنّ أَديمَهُ ليلٌ بهيمٌ ... تحجّلَ باليسيرِ من الصباحِ
إذا احتدمَ التسابقُ صار جرمًا ... تقلّبَ بين أجنحةِ الرياحِ[٢]

يفتخر الشاعر بسرعة فرسه ورشاقته، فكأنه البرق الخاطف في سرعته فهو يسبق الطرف منطلقًا كأنه جرم يتقلب في أجنحة الرياح. وهو قد ذكر من خلال خياله الواسع وذوقه الرفيع كيف أنّ هذا الفرس يجمع بين السواد المظلم مع قليلٍ من البياض ليشير إلى فرسه الأدهم الذي اختلط سواده بقليل البياض وهو شديد ناصع كالصباح...

ومثله قول ابن اللبانة في ذكر تحجيل فرسه المصاغ من نور الصباح، يقول واصفًا:

لمّا رأى أنّ الظّلام أديمُهُ ... أهدى لأربعهِ الهدى تَحجيلا
وكأنّما في الرّدفِ منه مباسمٌ ... تبغي هناكَ لرجلهِ تقبيلا[٣]

وأما أبو بكر بن الملح فيقدم لوحة فنية مرسومة بعناية ودقة لخيول رآها في حلبة في قوله:

فمِن سابحٍ وَرْدٍ تجلببَ خِلْقةً ... بنسجِ دمٍ قبلَ النتاجِ ممارِ
وأبلقَ كالرّيمِ المدمّى مُفَضَّضٍ ... تخالُ بشَقّيهِ مَسَالَ نُضارِ
وأشهبَ تجلوهُ المعاني كأنّما ... تزيِّنُ منه زَنْدَها بسوارِ
وأشقرَ نوريّ يهبُّ كأنّهُ ... وقد قَدَحَتْهُ الحربُ مقبِسُ نارِ
وأدهمَ كالليلِ البهيمِ تعلّقتْ ... به تحتَ كمِّ الفجرِ كفُّ نهارِ
إذا ما عَلاهُ راكبٌ فكأنَّهُ ... بغُرَّتِهِ تحتَ المطالبِ سارِ[٤]

(١) الأديب أبو محمد عبد الله، صاحب كتاب (الحديقة في البديع)، وهو من معاصري المعتمد بن عباد، وقد زاره في سجنه بأغمات. ينظر: المغرب في حلى المغرب: ٣٤/٢، ونفح الطيب: ٥٧٢/٣.
(٢) نفح الطيب: ٥٧٢/٣.
(٣) ديوان ابن اللبانة الداني: ١٠٩-١١٠.
(٤) شعر ابن الملح أبي بكر محمد بن إسحاق اللخمي (ت٥٠٠هـ) (بحث): ٣٢٧. البلق: سواد وبياض. ينظر: لسان العرب: مادة (بلق).

يذكر الشاعر ما تمتاز به هذه المجموعة من الجياد، فلكل منها سماته ولونه الخاص، وعلى الرغم من أنها جاءت موجزة مختصرة، لكنها لم تغفل عن ذكر أبرز هذه السمات، وكأنه يذكر اللون مقدمة لوصف ما تمتاز به هذه الجياد، فاللون لم يكن له تأثير قوي في صفات الجمال وحسن المظهر مع توافر الصفات الأخرى التي تعرف بها الخيل، مثل العراقة والقوة والسرعة وضمور البطن... إلخ، مما عرف عن الخيل وقيمتها جمالاً ومكانة. والشاعر يتجاوز القيمة الفردية إلى قيم عامة مشتركة يضفيها على الخيل بصورة عامة من دون الاقتصار على فرَسٍ أو جواد بعينه.

والخيل تقطع مع صاحبها الصحراء وتخوض معه المعارك وتحمل المشاق وصولاً إلى الممدوح. وهذه الرحلة لم نجد لها صدًى عند الشاعر الأندلسي، وهو عائدٌ لاختلاف الطبيعة الأندلسية عما سواها، والتحضر في الحياة، فجاء حديث الشاعر الأندلسي عنها متأثرًا بحياته الحضرية وعيشه المتمدن، ولذا وجدناه يشبّه الخيل بالعروس وزينتها... وما إلى ذلك من أوصاف تلك الحياة وذلك العيش.

ويبرز ابن عمار قيمة جمالية للإبل في كونها وسيلة خير وأداة توحيد وجمع للشمل، فهي تعرف طريق الملوك الأكارم في مثل قوله:

يقولونَ لي: دَعْ أيدي العِيسِ إنّها تؤدّي إلى أيدي الملوكِ الخضارِم
فديتهم لم يبعثوا حرص عاجزٍ ولا نَهَوْا إذ نَبّهوا طرفَ نائمِ[1]

وتخفت الإشارة إلى الإبل عندهم حتى لا تكاد تتجاوز اللفظة الواحدة بصورة مبهمة غامضة، كقول الشاعر ابن الطراوة أبو الحسن سليمان (ت٥٢٨هـ)[2]:

إذا رأوا جملاً يأتي على بُعدٍ مَدّوا إليه جميعًا كفَّ مُقتَنِصِ
إنْ جئتهم فارغًا لزّوكَ في قَرَنٍ وإنْ رأوا رشوةً أفتَوْكَ بالرُّخصِ[3]

الشاعر هنا استعمل الجمل قيمة جمالية لشيء في باله وفكره، ويبدو أنه حاقد وكاره للفقهاء الذين امتازوا بالرشوة وأخذ المال والإفتاء عن طريق هذا الأخذ.

---

(١) محمد بن عمار الأندلسي: ٢١٢.
(٢) أبو الحسن سليمان بن محمد بن الطراوة النحوي، كان من أهل علم بالعربية وتجوّل في بلاد الأندلس معلمًا. توفي سنة (٥٢٨ه). ينظر: تحفة القادم: ١٨، والمقتضب: ٦٤، والمغرب في حلى المغرب: ٢٠٨/٢.
(٣) المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار: ٦٤.

القيمة الجمالية تكمن في وصف هذا الجمل، بل مجرد الإشارة إليه و هو ما يتبادر إلى الذهن من حمل المتاع وكثرته. فالشاعر وفّقَ في المزج بين دلالة استخدام الجمال وبين هجاء هؤلاء الفقهاء الذين لا يرقبون في دينهم إلًّا ولا ذمّة.

والأندلسي في وصفه لمظاهر لوحة الصيد لم ينسَ وسيلة تلك اللوحة ألا و هي الكلب، فجاء بها في شعره على نحو قول الرمادي:

ولقد غدوتُ بأهرتٍ متضائلٍ ... سرُّ النفوسِ إليه غيرُ ضئيلِ
ولَرُبَّما اشتمَّ الصعيدَ بأنفِهِ ... حينًا فقامَ له مقامَ دليلِ
متتبّعٌ لطِلابِهِ فكأنّهُ ... في القيظِ يطلبُ ظلَّهُ لمقيلِ[1]

فهو يذكر ما امتاز به من قوةٍ وجَرْيٍ سريع وخفة حركة، مع حاسة شمّهِ القوية، وهذا الكلب (الأهرت) المتسع الفم يتتبع حواسه دون كلل، فهو كظلٍّ يتابع صاحبه، دلالة على السرعة ودقة الحركة، وهنا تكمن قيمته الجمالية التي أراد الشاعر أن يوصلها لنا. ومثل هذا الوصف يذهب إليه ابن هذيل في إبراز قيمة (الكلب) من خلال ذكر أوصافه، فهو يشتهي الصيد ويسابق الريح فتقصر عنه، يقول في كلبه هذا:

وأغضفَ يُلْغي أنفَهُ فكأنّما ... يقودُ به نورٌ من الوحي نيِّرُ
إذا ألهَبَتْهُ شهوةُ الصَّيدِ طامعًا ... رأيتَ عقيمَ الرِّيح عنه تقصِّرُ[2]

ويقصد أنه يلغي أنفه فلا يحتاج إلى حاسة الشم، فكأنه ملهم في اصطياد طرائده.

والشاعر انتبه لأدق التفاصيل في إبرازه لقيم الجمال الخاصة بهذه الحيوانات، فكل حركة وفعل يأتي ما يعلله من خلال شعره، ويضفي عليه من سماته الإنسانية فيغدو عنده عنصرًا محركًا ومتماهيًا مع كيانه الإنساني الجمالي.

وللحيوان المفترس مكانته وقيمته الجمالية في شعر هذه الحقب، فهذا ابن شهيد يقدم وصفًا (للذئب)، ذاكرًا قيمته كحيوان مفترس له جماله من خلال صفاته وحركته ولون جلده وألحاظه المخيفة المخادعة، تقبس النار من ماء عينيه، يقول:

إذا اجتاز عُلويُّ الرّياحِ بأفقهِ ... أجدَّ لعرفانِ الصَّبا يتنفّسُ
تذكرَ روضًا من شويٍّ وباقرٍ ... تولَّتْهُ أحراسٌ من الذُّعرِ تُحرَسُ

(١) شعر الرمادي: ١١٥.

(٢) شعر يحيى بن هذيل: ٨٧.

إذا انتابَهـا مـن أذؤُبِ القفـرِ طـارِقٌ ... حثيـثٌ إذا مـا استشـعر اللحـظ يَهْمِـسُ
أزلُّ كسـا جُثمانـه مُتسـتِّرًا ... طيـالسَ سـوُدًا للـدُّجى وهـو أطلـسُ
فـدلَّ عليـهِ لحـظُ خـبٍّ مُخـادعٍ ... تـرى نـارَهُ مـن مـاءِ عينيـه تُقـبسُ[1]

وأما أبو إسحاق الألبيري فيأتي على ذكر الذئب في بيت شعر، مقرنًا إياه بالفقيه، فالأول أسلم عند الشاعر من فقيه يطلب الدنيا ويبيع دينه لها، يقول:

وَكَـم ذيـبٍ نُجـاوِرَهُ وَلَكِـن ... رَأيـتُ الـذِئبَ أسـلَمَ مِـن فَقيـهِ[2]

والشاعر ميز الذئب بصفاته ووحشيته وجعل منه قيمة يقارن به من يصل لمقامه في سوء عمله، لكن هذا الحيوان المفترس يمكن أن يسلم جانبه ويجاور عكس من فقد إنسانيته وأصبح ذئبًا أو أسوأ منه.

وأمّا (الأسد) فهو حيوان مهاب ذو مكانة بين جنسه، وعند الإنسان أيضًا، وتَسمّى به كثير من الملوك والعظماء والشجعان، كناية عن القوة والمكانة، فهذا ابن زيدون يفتتح قصيدته بالفخر مسندًا صفات الأسد لنفسه، يقول:

أَنَـرْتَ هِزَبـرَ الشَّـرَى إذ رَبَـضْ ... ونَبَّهتـه إذ هـدا فـاغتمضْ
وَمـا زِلـتَ تَبسُـطُ مُستَرسِـلاً ... إلَيـهِ يَـدَ البَغـيِ لَمّـا انقَـبَضْ
حـذارِ حـذارِ فـإنّ الكـريمَ ... إذا سِـيمَ خسـفًا أبـى فـامتَعَضْ
فـإنّ سـكونَ الشـجاعِ النهـو ... سِ لـيسَ بمانعـهِ أنْ يَعَـضْ[3]

لقد استمدّ الشاعر هذه الصفات من الأسد لكونه قيمة جمالية في قوته وشجاعته مكونًا بذلك صورته التي توحي بهذه القيم التي تخص الأسد. والشاعر في بيته الأول يشير إلى الأسد صراحة بـ (الهزبر)، وأما في أبياته الأخرى فهي تصب في تكوين صورته

(١) ديوان ابن شهيد: ١١٩. الشوي: هو اليدان والرجلان وأطراف الأصابع. ينظر: لسان العرب: مادة (شوى). باقر: جماعة من البقر مع رعاتها. ينظر: لسان العرب: مادة (بقر). أطلس: هو الأسود والوسَخ، أو هو عبدٌ حبشي أسود. ينظر: لسان العرب: مادة (طلس). الخِبّ: هو الخداع والخبث والغش. ينظر: لسان العرب: مادة (خبب).
(٢) ديوان أبي إسحاق الألبيري: ٨٣.
(٣) ديوان ابن زيدون: ٦٧-٦٨. النهوس: العضوض. ينظر: لسان العرب: مادة (نهس).

الجمالية من خلال مقارنة وأخذ صفات الأسد في الشجاعة والقوة، فهو يفخر بنفسه ويلوم أعداءه، ومهدّدًا ومتوعدًا بعدم الرضوخ أو الخضوع.

وابن عمار نراه يسلك مسلك القدماء في إضفاء صفات القوة على ممدوحه، وذلك بتوظيف لفظة الأسد وجعلها قيمةً ومفهومًا لتكوين الصورة الجمالية للممدوح، فيصفه بالليث ومخالبه بسيوف الهند، يقول:

خميسٌ تردّى من بنيكَ بمرهَفٍ حكاكَ كما قدّ الشراكُ من الجلدِ
ببدرٍ ولكن مِن مطالعهِ الوغى وليثٍ ولكن من براثنهِ الهندي[1]

وللطير مكانته ومنزلته عند الشعراء العرب، وعند الشعراء الأندلسيين أيضًا فالطيور تشاركهم في شدوها وتغريدها في الطبيعة، فتعطي جمالاً موسيقيًّا لهذا الجمال الخلاب، مما يضيف حاسة السمع للحواس الأخرى التي تستمتع بهذا الجمال، فهو يتشابه معها بحزنه حين فراقه وفرحه عند اللقاء، و«سواء من حيث أوصافه المجردة وما تنم عليه من مظاهر الجمال والبهجة أم من حيث علاقته بالإنسان عامة وعلاقته بالأديب خاصة، وذلك من خلال شدوه وإنشاده، وفيما يدخله مظهره كذلك على نفس الأديب من البهجة والفرح أو يثيره من لوعات الأسى وآلام الفراق والبعد عن الأوطان»[2].

والشاعر الأندلسي حين يسمع تغريد هذه الطيور، يستلهم منها القيمة الجمالية بتحريك ذواتهم من مكامنها؛ لأنها تهز قلوبهم وتشدهم إلى التناغم مع هذه الطيور، فشعرهم صورة صوتية للأغاريد العذبة التي سحرتهم وأمدتهم بمفاهيم جميلة تُلهم ذواتهم وتطربها، وهذا ما وجدناه صريحًا في قول ابن عبد ربه:

وإنَّ ارْتياحي من بكاءِ حمامةٍ كذي شجنٍ داويتُهُ بشُجونِ
كأنَّ حَمامَ الأيكِ حينَ تَجاوبَتْ حزينٌ بكى من رحمةٍ لحزينِ[3]

ويقول في أخرى:

ولرُبَّ نائحةٍ علَى فَنَنٍ تُشْجي الخليَّ وما به شجوُ
وتَغَرَّدتْ في غصنِ أيكتِها فكأنَّما تغريدُها شدوُ[1]

(١) محمد بن عمار الأندلسي: ١٩٦.
(٢) وصف الحيوان: ١٠١.
(٣) ديوان ابن عبد ربه: ١٦٥.

في أبياته الأولى يذكر شجو الحمام الحزين، وهذا الشجو قد هيج عواطف الشاعر وأحاسيسه، وقد بلغ ذروته عندما تصوّر أنّ شجوَ الحمام وحزنه لحزنه هو، أي جعلها تحزن وتبكي لبكائه، وهنا نرى التماهي والتمازج بين كيان الشاعر والحمامة، وفي أبياته الأخرى يكرر صورة الشدو ويجعلها القيمة الجمالية التي تعرف بها الحمامة، فهي بشدوها الحزين قد عرفت على مر العصور.

وهذا محمد بن مسعود البجاني (ت ق٥هـ)[٢] يقول:

والطيـــرُ فـــي أيكِهـــا مغـــرّدة كأنّهـــا فـــي منـــابرَ تخطَـــبْ
أعجِـبْ بِهـا مِـن نواطـقَ خُـرُسٍ تـوجزُ حينًـا وتـارةً تُسْـهِبْ
تُفهِمُنـــي عُجْمَـــةً بألسُـــنها معنـى الكـلامِ المبـينِ المُعْـرِبْ[٣]

هذه الأبيات تأتي في نهاية قصيدته التي يصف فيها الرياض وما فيها، ويصل إلى تغريد الطير وعدّها عنصرًا للجمال، فهي كالخطيب الذي يقف على منبره، والشاعر استشعر أحاسيس الطير المبتهجة بجمال الرياض والربيع، فهي تغرد بشكل متقطع كأنها تقدم قطعة موسيقية تريد من يسمعها ويشجعها عليها، لأنها لسان هذا الجمال، وناطقة بأعذب الألحان، لحن يبث الحياة ويشدو بها كل من يسمعها.

ونجد من الشعراء من يقارن حالة البكاء عنده بهذا الشجو الحزين للحمامة جاعلاً منه بكاءً أيضًا. فهذا أبو إسحاق الألبيري يجعل من الحمامة وشدوها الحزين عنصرًا ذا قيمة، بجعله مشابهًا لبكائه، إلا أنّ سبب البكاء يختلف، ولنستمع لقوله:

أحَمامَـةَ البَيـدا أطَلـتِ بُكـاكِ فَبِحُسـنِ صَـوتِكِ مـا الّـذي أبكـاكِ
إن كـانَ حَقًّـا مـا ظَنَنـتُ فَـإِنَّ بـي فَـوقَ الَّـذي بِـكِ مِـن شَـديدِ جَـواكِ
إِنّـي أَظُنُّـكِ قَـد دُهيـتِ بِفُرقَـةٍ مِـن مُـؤنِسٍ لَـكِ فَارتَمَضـتِ لِـذاكِ
لَكِـنَّ مـا أَشـكوهُ مِـن فَـرطِ الجَـوى بِخِـلافِ مـا تَجِـدينَ مِـن شَـكواكِ
أَنـا إِنَّمـا أَبكـي الـذُّنوبَ وَأَسـرَها وَمُنـايَ فـي الشَّـكوى مَنـالُ فَكـاكي

(١) م. ن: ١٧٥. الفنن: الغصن. ينظر: لسان العرب: مادة (فنن).
(٢) أبو عبد الله محمد بن مسعود الغساني البجاني، أصله من بجانة، وسكن قرطبة فنسب إليها. ونسب إلى الزندقة فسجنه الحاجب المنصور بن أبي عامر في المطبق مع الشريف الطليق. ينظر: جذوة المقتبس: ١/١٥١، وبغية الملتمس: ١/١٧٠، والمغرب في حلى المغرب: ٢/١٩١.
(٣) البديع في وصف الربيع: ١٥.

وَإذا بَكَيتُ سَألتُ رَبي رَحمَةً وَتَجاوزًا فَبُكايَ غَيرُ بُكاكِ[1]

إنّ الحالة التي عليها الشاعر مع هذه الحمامة قائمة على الموازنة بينهما، فالشاعر تحدث في أبياته الثلاثة الأولى عن بكاء الحمامة وسببه. أما في أبياته الثلاثة الأخرى فتحدث عن سبب بكائه هو، فبكاء الحمامة سببه فرقة المؤنس الحبيب، فهي تبكي لعل من يسمعها يوصل حالها لمن فارقه فيحن ويتجاوب معها، لكن بكاء الشاعر من كثرة الذنوب ورجاء المغفرة من الله سبحانه وتعالى، فهو الأمل الذي يتعلق به الشاعر.

وابن عمار يمزج في أبياتٍ بين الطبيعتين (الساكنة والمتحركة) ويجعلهما قيمة جمالية واحدة في إبراز صورة البكاء لفقدانه، فهو الذي تستفقده عناصر الطبيعة كلها، من حمامٍ وغمام، ورعد وبرق، فكلها تنوح وتبكي لفقدانه، يقول:

علـيّ وإلا مـا بكـاءُ الغمـائمِ وفـيّ وإلا مـا نيـاحُ الحمـائمِ
وعنّـي أثـارَ الرعـدُ صـرخةَ طالـبٍ لثـأرٍ وهـزَّ البـرقُ صـفحةَ صـارمِ
ومـا لبسـت زهـر النجـومِ حِـدادَها لغيـري ولا قامـتْ لـه فـي مـأتَمِ
وهـل شـققت هـوج الريـاحِ جيوبَهـا لغيـري او حنّـتْ حنـينَ الـرَّوائِمِ[2]

فالشاعر حين نُفي من بلدته إشبيلية وأصبح شريدًا مسجونًا، ثارت مشاعره وتذكر مكانته، فأراد من يشاركه في حزنه فلم يجد غير الطبيعة وعناصرها، فجعلها تبكي وتنوح وتصرخ وتثأر له، وتقيم عليه المآتم وتشق الجيوب، كيف لا وهو الوزير الشاعر الذي قد أمسى شريدًا وحيدًا. فقيمة الطبيعة وجماليتها في مشاركة كل شريد ووحيد ألمه، تصرخ بصراخه بل تنوح وتعطف عليه. والشاعر بمزجه عناصر الطبيعة الساكنة والمتحركة معًا واستعارة صفات الإنسان في حال البكاء والحزن كان أقرب لمشاعره الإنسانية في مثل هذه الظروف.

وهذا الوزير حسان بن مالك بن أبي عبدة (ت٤١٦هـ)[3] يقول:

وممّـا شـجاني هـاتفٌ فـوق أيكـةٍ ينـوحُ ولـم يعلـمْ بمـا هـو نـائحُ
فقلـت اتّئِـدْ يكفيـك أنّـي نـازحٌ وأنّ الـذي أهـواه عنـي نـازحُ[1]

(١) ديوان أبي إسحاق الألبيري: ٣٨-٣٩.
(٢) محمد بن عمار: ٢٠٩. الروائم: هي الناقة العاطفة على ولدها. ينظر: لسان العرب: مادة (رأم).
(٣) الوزير أبو عبيدة حسان بن مالك بن أبي عبدة، من أهل قرطبة يكنى أبا عبيدة، وكان من جلة الأدباء وعلمائهم أيام المنصور بن أبي عامر. ينظر: جذوة المقتبس: ٣٠٣/١، وبغية الملتمس: ٣٣٣/١، ومطمح الأنفس: ٢١١.

نعود مرة أخرى لقيمة (شجو الحمام) الجمالية من خلال هذين البيتين، فالشاعر حين تلامس مسامعه شجو الحمام الذي لا يعرف سرها، فراح يطالبها بالتمهل في إظهار أساها، فمصيرهما واحد، وسهام القدر المؤلم لا ينجو منها أحد. فاللوحة قد رُسمت بعين الوجدان والعاطفة، التي أُستُمِدت من عالم الخيال، كاشفًا لنا عن أعماق نفسه وخلجات وجدانه.

وأما الحشرات فكان لها نصيب عند الشاعر الأندلسي، كيف لا و هو لا يترك شيئًا مما حوله إلا قال فيه شعرًا، فهذا ابن شهيد يقدم لوحة وصفية (للنحلة)، يقول:

وطائِرةٍ تَهْوِي كأنَّ جَناحها ... ضَمِيرٌ خَفِيٌّ لا يُحَدِّدُهُ وهْمُ
مُلازِمةٍ للرَّوْضِ حتى كأنَّما ... لها كُلُّ ما تَفْتَرُّ عنه الرُّبى طُعْمُ
تَمُجُّ بفِيها الشَّهْد صِرْفًا ويخْتَفِي ... لمُشْتارِهِ ما بيْنَ أَحْشائِها سَهْمُ
مُنافِرةٍ للإِنْسِ تأنَسُ بالفَلا ... مُفَرِّقةٍ للشَّهْدِ مِن بَعْضِها السُّمُّ
فإِذْناؤُها رُشْدٌ وَهَتْكُ حِجابها ... إِذا احْتَجَبتْ في غَيْرِ أَيَّامِها ظُلْمُ[٢]

لقد اعتمد الشاعر في عرضه لقيمة النحلة جماليًا بأبرز صفاتها في مظهرها وتحركها وفي طباعها وما ينتابها في مراحل حياتها في أوقات السبات، وتتميز بجمال الحركة ورشاقة الطيران منتجة اللذيذ النافع للإنسان، لكنها حين تشعر بالخطر تتحول إلى عنصر دفاعها وهو السم الذي تلدغ به من يحاول مهاجمتها والتعدي على مملكتها. فهذه صورة مصغرة لحياتها قُدّمت لنا بموهبة شاعر فذ، ناقلاً لنا قيمتها وجمالها من خلال نفعها وعملها وتأثيرها في الطبيعة والإنسان.

ويأتي ابن حزم لينقل لنا صورة (الفراشة) وهي تحرق جناحيها في وصفه:

كم دُرْتَ حولَ الحُبِّ حتّى لقد ... حصلتَ فيه كحصولِ الفَرَاشْ
تَعشو إلى الوصلِ دواعي الهوى ... كما سرى نحوَ سَنا النارِ عاشْ
علِّلْني بالوصلِ من سيّدي ... كمثلِ تعليلِ الظِّماءِ العِطاشْ
لا توقفِ العينَ على غايةٍ ... فالحسنُ فيهِ مستزيدٌ وباشْ[٣]

(١) مطمح الأنفس: ٢١٣.
(٢) ديوان ابن شهيد: ١٥٠. اشتار العسل: اجتناه من خلاياه ومواضعه. ينظر: لسان العرب: مادة (شتر).
(٣) ديوان ابن حزم الأندلسي: ٩٣.

فالشاعر يشبه العاشق الذي شفّه الوجد بالفراشة تدور حول النار من دون أن تكترث، وكانت النتيجة أن أحرقت النار جناحيها، فكذلك العاشق الذي يعلم أنّ الهوى قاتله ومسبّب الألم والحزن له، إلا أنهما لا يتركان سبب ضياعهما وألمهما. وابن حزم جعل من موقف الفراشة من النار قيمة جمالية، ليتعظ بها من يعلم سر هذا الانجذاب نحو النور الذي هو نارٌ محرقة ونتائجه.

من خلال هذا العرض لجمال الطبيعة بشقيها (الساكن والمتحرك) يتضح مدى تغلغل الطبيعة في نفوس الأندلسيين وإقبالهم على التمازج معها، فالطبيعة كانت بالنسبة لهم إطارًا واسعًا يفضلون أن يضعوا فيه كل شيء، ونلحظ تنوّعًا وعمقًا وذكاءً في كثير من الأحيان، مركزين في ذلك بإظهار الجانب الإنساني. وعمدوا إلى التشبيهات والاستعارات لإبراز القيمة وإعطائها شكلها التعبيري الدال على جمالها وحسن محتواها. لذا كان جمال الطبيعة «بمثابة وتر طريف شده الأندلسيون إلى جانب الأوتار الأخرى في قيثارة الشعر العربي وعزفوا من خلاله أبهج الألحان»[1].

(١) ملامح الشعر الأندلسي: ٢٦٦.